بلاغة الخِطَابِ السياسي

قراءة في خطبة الْحَجَّاج لأهل الكوفة

عصام محمود أحمد

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

بلاغة الخِطَابِ السياسي قراءة في خطبة الْحَجَّاج لأهل الكوفة

عصام محمود أحمد

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على أهم السمات الأسلوبية التي استخدمها الحجاج بن يوسف الثقفي في خطته القوية المشهورة التي وجهها إلى أهل العراق عامة وأهل الكوفة بصفة خاصة، وتقوم بدراسة آليات الحجاج التي اعتمد عليها في خطبته لتحقيق هدفه.

وتدرس الدراسة الآليات الحجاجية اللغوية الإقناعية التي اعتمدها الحجاج في خطبته ، وقد لغت هذه الخطبة الآفاق شهرة بسبب ما فيها من عبارات قوية تجعلها تستحق أن تكون محلا للدراسة وفق المناهج الحديثة ومن بينها الحجاج.

لا تتوقف الدراسة هنا على موقف الحجاج وحججه وإنما تتعرض لموقف المتلقين المعاندين وبيان حالهم للوقوف على أهمية الخطبة ودور الآليات الحجاجية التي استخدمها المرسل في رسالته لمواجهة معارضيه.

هو الْحَجَّاج بن يُوسُف بن الحكم الثَّقَفِيّ أَمِير الْعرَاق ولد سنة أَرْبَعِينَ أَو إِحْدَى وَأَرْبَعين وَتُوفِّي سنة خمس وَتِسْعين روى عَن ابْن عَبَّاس وَسمرَة بن جُنْدُب وَأَسْمَاء بنت الصّديق وَابْن عمر

قَالَ النَّسَائِيّ لَيْسَ بِثِقَة وَلَا مأمونٍ وَقَالَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء مَا رَأَيْت أحدا أفْصح من الْحَجَّاج، وَالْحسن وَالْحسن أفصحهما. وَقَالَ عون كنت إِذا سَمِعت الْحَجَّاج يقْرَأ عرفت أَنه طالما درس الْقُرْآن وَقيل إِنَّه كَانَ يَقْرَؤُهُ كل لَيْلَة، وَقَالَ عتبَة بن عَمْرو مَا رَأَيْت عقول النَّاس إِلاّ قَرِيبا بَعْضهَا من بعض إِلاّ الْحَجَّاج وَإِيَاس ابْن مُعَاوِيَة فَإِن عقولهما كَانَت ترجح على عقول النَّاس. أحصي مَا قتل صبرا فَبلغ ذَلِك مئَة وَعشْرين ألفا، وَعرضت بعد مَوته السجون فَوجدَ فِيهَا ثَلَاثَة وَثَلَاثُونَ ألفا لم يجب على أحدهم قطعٌ وَلَا صلب. وَقَالَ الْهَيْثَم بن عدي: مَاتَ الْحَجَّاج وَفِي سجنه ثَمَانُون ألفا، مِنْهُم ثَلَاثُونَ ألف امْرَأَة. وَقَالَ عمر بن عبد الْعَزِيز:

عصام محمود أحمد

لَوتخابثت الْأُمَم وَجِئْنَا بالْحَجَّاج لغلبناهم، مَا كَانَ يصلح لدنيا وَلَا آخِرَة، وَلما توفّي لَيْلَة سبع وَعشْرين من شهر رَمَضَان وَله خمسٌ وَخَمْسُونَ سنة توفّي بواسط وعفّي قَبره وَأَجْرِي عَلَيْهِ المَاء[1].

وهذه الخطبة من الخطب القوية في التاريخ العربي؛ سعى من خلالها الْحَجَّاج إلى توصيل رسالة قوية لأهل العراق الذين كانوا دائمي الثورة على حكم الأمويين من مساندة لعلي بن أبي طالب وولديه الحسن ثم الحسين، وثورات الخوارج والزبيريين فكانت بيئة العراق تموج بحالة من الثورة المستمرة الرافضة لحكم بني أمية، وكان ظهور الْحَجَّاج على الساحة بمثابة النقطة الفاصلة في تاريخ الحياة السياسية في الدولة الإسلامية؛ فقضى على الثورات والفتن، وبنى الدولة الثانية لبني أمية بزعامة عبد الملك بن مروان، وتوضح هذه الخطبة سياسته في الحكم وبخاصة مع أهل العراق ومن شابههم.

(نص الخطبة)

حَدَّثَ عبدُ الملك بن عمير الليثي قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَاليه؛ إذ أتى آتٍ، فقال: هذا الْحَجَّاج قد قدم أميرًا على العراق؛ فإذا به قد دخل المسجدَ معتمًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدًا سيفًا، متنكبًا [2]قوسًا، يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قَبَّحَ اللهُ بني أمية؛ حيث تستعمل مثل هذا على العراق! حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر[3]؛ فلما رأى عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه، ونهض فقال:

"أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني[٤]

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعلِهِ، وأجزِيه بمثلِه، وإني لأرى أبصارًا طامحة[٥]، وأعناقًا متطاولة، ورءوسًا قد أينعت[٦]وحان قطافُها[٧]، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق[٨] بين العمائم واللحى ، ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم[٩] ... قد لفها الليلُ بسواق حُطَم
ليس براعي إبلٍ ولا غنم ... ولا بجزارٍ على ظهرِ وَضَم[١٠]
ثم قال:

قد لفها الليلُ بعصلبي

أروع خراج من الدَّوِيّ
مهاجرٍ ليس بأعرابيّ[١١]
ثم قال:
قد شمرت عن ساقها فشُدُّوا ... وجدتِ الحربُ بكم فجِدُّوا
والقوس فيها وترٌ عُرُدٌّ ... مثل ذراع البَكْرَ أو أشَدُّ

إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع [١٢]لي بالشنان[١٣]، ولا يغمز جانبيّ كتغماز التين[١٤]، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء[١٥]، وفُتِّشْتُ عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه– كب كنانته[١٦]، بين يديه، فعجم عيدانها[١٧]، فوجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها عمودًا فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم[١٨] في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغِيّ، أما والله لألحونكم لحو العصا[١٩]، ولأقرعنك قرع المروة[٢٠]، ولأعصبنكم عصب السلمة[٢١]، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٢٢]؛ فإنكم لكأهل قرية {كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} وإني والله لا أعدُ إلا وفيتُ، ولا أهم إلا أمضيتُ، ولا أخلَقُ إلا فَرَيْتُ[٢٣]؛ فإياي وهذه الشفعاء، والزرافات[٢٤] والجماعات، وقالاً وقيلاً[٢٥]، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟

أما والله لتستقيمُن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلًا في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة[٢٦]، وإني أقسم بالله لا أجد رجلًا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله[٢٧]، وهدمت منزله".[28]

(١)

- أساليب الإقناع

هذه الخطبة واحدة من الخطب السياسية القوية في العصر الإسلامي، واجه بها الْحَجَّاج أهل العراق ومعارضي الدولة الأموية عامة وإن ألقاها في الكوفة ، وكلاهما على طرفي نقيض، فالبغض متبادل بين الطرفين ؛الأمويين ويمثلهم القائد العسكري الْحَجَّاج والعراقيين، فالمرسل هنا هو الْحَجَّاج والمستقبل هم أهل العراق، وبالنظر إلى حال المتلقي نجده متلقيًا رافضًا معاندًا غير قابل للإقناع والتأثر بكلام ناعم لين ، ولا يمكن طيهم بالعطايا والمنح والهبات ، وهم بالفعل من أشد أعداء بني امية عامة والحجاج بصفة خاصة ، ولاشك أن الْحَجَّاج كان على وعي تام بهذا الأمر لذلك فهو قادم ليتحدث مع أعداء كارهين حاقدين، كما أن الْحَجَّاج وهو قائد منتصر دخل العراق زهوًا ما كان له أن يستخدم لغة رقيقة لينة خاصة مع عدو كاره حاقد، لذلك كان التوجه نحو خطبة تحمل التهديد والوعيد، وفيها تعريف خاص بالمتكلم « وتبدأ عملية الإنشاء عند المنشئ

بوجود مثيرات أو انفعالات أو محركات داخلية نابعة من ذاته ، أو خارجية من البيئة المحيطة به ، هذه المثيرات تتحول إلى أفكار ومعان في ذهن صاحبها ، ثم تترجم إلى عبارات لفظية تمثل أسلوب المنشئ [٢٩] ،فعند الحجاج المثيرات والانفعالات التي تحركه لإلقاء خطبة قوية تحمل رؤيته وتعبر عما يجيش في نفسه.

أهل العراق في هذا الوقت من النوع الرافض المعاند الذي لا تصلح له نصيحة ولا يمكن اجتذابه بالحجة، فلجأ الْحَجَّاج إلى الحل الثاني وهو التهديد القوي الصارم مع استخدام ألفاظ تعبر عن هذه القوة والصرامة، وقد تميل أحيانًا إلى الغموض الذي يحتاج معه المتلقي لدرجة عالية من ثقافة التلقي، ومعروف أن أهل العراق كانوا مثقفين ثقافة عالية بسبب الحوار والنقاش بين المذاهب الدينية والآراء الكلامية والفقهية، استخدم تلك التراكيب التصويرية التي لها الإيقاع المخيف في النفس؛ لأن قوما بهذه الصفة يحتاجون إلي معاملة خاصة تناسب ثقافتهم ولغتهم، وحالتهم الثورية فقد كانوا دائمي الثورة والتقلب ما بين تشيع وخوارج ورافضة ، وحتى في داخل المذهب الواحد لم يكونوا علي كلمة واحدة؛ فكل مذهب كانت له فروع وانشقاقات وكان الحجاج يعرف كل هذا.

- الصمت أبلغ التعبير

وقد لجأ الْحَجَّاج بداية إلى الصمت لفترة طويلة قبل إلقاء خطبته كما يذكر الرواة، والصمت نوع من البلاغة له خصوصية شديدة عند الخطيب، وإن كان مستحبا في معظمه ، فللصمت أغراض عدة منها التحلي به والحفاظ على الهيبة والوقار ، وقد استشهد الجاحظ بقول أحيحة بن الجلاح :

والصمت أجمل بالفتى ... ما لم يكن عيّ يشينه[٣٠]

وكان ذلك على سبيل الدفاع عن الصمت المتعمد غير الناتج عن عيب في اللسان أو ضعف في البلاغة، والذي يمكن أن نسميه الصمت البلاغي ، فقد يأتي الصمت ليكسب صاحبه محبة في قلب المتلقي « وقال أكثم: الصمت يكسب أهله المحبة[٣١] ، فكان الصمت من صفات العلماء والزهاد وعلامة عليهم، وهذا ما يدعم القول بأنه رسالة في ذاته.

ولا شك أن الْحَجَّاج لم يسع إلى تحقيق المحبة في قلوب العراقيين له وهو يدرك أنهم يكرهونه، ولن تتغير مشاعرهم نحوه مهما يقول أو يفعل .

ومن ثم كان صمت الْحَجَّاج هنا بمثابة ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، وقد ذكره ابن سلام تحت عنوان «باب الرجل يطيل الصمت حتى يحسب مغفلا وهو ذو النكراء»، فقال: «قال الأصمعي: من أمثالهم في هذا: مخرنبق لينباع. والمخرنبق: المطرق الساكت، وقوله: لينباع ليثب إذا أصاب فرصته والمنباع: المنبعث، فمعناه إنّه سكت لداهية يريدها»[٣٢]. فسكوت الْحَجَّاج هنا عن الكلام لفترة طويلة جعل الناس تظنه أخرقَ يمكنهم حصبه بالحصى -كما ذكر راوي الخطبة-، فأطمعهم صمته فيه، حتى إذا تمكن منهم الطمع أخذهم بخطبته، ولا شك أنه كان يهدف بصمته هذا خداعهم كالأسد الكامن لفريسته يتحين منها فرصة ليقتنصها، وتظهر الرواية أن الصمت قد طال عن الحد الطبيعي؛ فقد قدم الْحَجَّاج من معركة انتصر فيها وسبقته سمعته إلى العراق، ولكنه بصمته الطويل هذا جعل الناس تتناسى أفاعيله وتطمع فيه، حتى يأخذهم على غرة وهي ثقافة الإمهال التي تزين للهدف وتطمعه، ففي صمته الطويل هذا إطماع لعدوه ثم تلذذ بهزيمته وسحقه عندما يكتشف أنه أضعف من عدوه

الذي يلتهمه ، وفي هذا بيان واضح لسادية الحجاج وتأكيد على دمويته وتلذذه بتعذيب اعدائه وقهرهم، ورغبته في التمتع بمنظرهم والحسرة تأكل نفو سهم .

ولاشك أن التأخر المدروس في الخطاب له فوائد منها إزالة الرهبة من نفس المرسل، وتوطيد الثقة في النفس، وتعد فرصة لدراسة المتلقين والتفرس في وجوههم، وبث اليأس بعد الرجاء في نفوس المتلقين، وقد أسهمت هيئة الْحَجَّاج في رسم تلك الصورة المرعبة « معتمًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدًا سيفًا، متنكبًا [٣٣]قوسًا، يؤم المنبر» فقد غطى معظم وجهه بعمامة بحيث يخفيه عن الناس، وهي هيئة تمنحه درجة من درجات التخفي والغموض في نفوس المتلقين ، وهو ما قصده قصدًا ، ثم إنه صعد المنبر حاملا أدوات الحرب (القوس- السيف)،وهي إشارة دالة دلالة بالغة تكشف عما بداخله من نوايا ؛ فاكتملت عناصر الرعب الشكلية التي أضاف إليها ذلك الصمت الطويل، واتجاهه نحو المنبر مباشرا توحي بقوته وأنه يعرف طريقه المحدد جيدا، والمتلقون تصلهم الرسالة التي عمد إلى توصيلها ، وهي أنه جاد في كل كلمة سينطق بها ، فتتحقق التهيئة النفسية للسمع والطاعة حتى وأن كانوا كارهين

(٢)

ثانيا وسائل دعم الحجة الاستشهاد

ومن الوسائل المؤثرة في الإقناعالاستشهاد، ولأن الذائقة العربية تربت علي الشعر وتدرك تأثيره في النفس، وقد استعان الْحَجَّاج بالشعر العربي في خطبته هذه منذ اللحظة الأولى فقد افتتح الخطبة بما يشبه ما فعله زياد ابن أبيه في خطبته المشهورة والمسماة بالبتراء إذ لم يبدأ باسم الله ولا بحمده وترك الثناء على رسول والصلاة عليه، وإنما افتتحها ببيت

شعري مشهورلشاعر معروف في الثقافة العربية آنذاك وهو سحيم:الوافر

أَنا اِبنُ جَلا وَطَلاعِ الثَنايا مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعرِفوني

فقد افتتح ببيت مشهور له مرجعية في الثقافة العربية، ومتداول بين الناس ويعرفون أنه كان في حالة الحرب يخوف به أعداءه، ومن ثم فهذا البيت تم اختياره بعناية فائقة للتعبير عن الهدف وهو الجمع بين الفخر والتهديد ، وبالنظر إلى معاني هذا البيت من خلال رؤية الحجاج نجد أنه بتمثله لهذا البيت يحيل إلى معنى خارج النصLogocentrism)) ثابت في ذهن المتلقي، يكفل صحة المعنى ويثبته دون أن يكون هو قابلا للطعن فيه أو البحث في حقيقته [٣٤]، وينتمي هذا النوع من الحجج إلى النوع الثالث في الحجج وأساليب الإقناع كما ذكر الدكتور شوقي مصطفى وهو الأساليب النقلية «الاستشهاد بقول أو رأي الغير وتوظيف سلطة السلف الفلسفي أو العلمي... كآلية للإقناع»[٣٥]فقد استخدم الحجاج هذا البيت وفيه سمات خاصة ، فتغلب عليه اللغة الانفعالية الخطابية من خلال اعتماد ضمير المتكلم (أنا) بشكل واضح في اول البيت ، وإضماره في جملة(وانا طلاع الثنايا أو ابن طلاع الثنايا، ثم حذفه وجوبا كما تقتضي الجملة النحوية في (أضع العمامة) لوجود الدال الظاهر عليها وهو (أ) في الفعل وضع ، ثم ذكر (ي) المتكلم صراحة في (تعرفوني) ، والجملة فيها فعلان أحدهما ماض، وفي عرف العربية يحمل دلالة التحقق والثبوت والثاني مضارع مبني على ثبوت النون يمنح دلالة الثبات لا التغير ، وفي البيت فخر وتهديد، فخر بنفسه وبأصله وهدد وتوعد، وهو استكمال لتلك الصورة المخيفة التي بدأها شكليا[٣٦].

فتمثله ببيت سحيم ومعه كل تلك المعاني التخويفية الفخرية مع الهيئة المرعبة التي ظهر عليها يعني أنه يريد أن يضع أهل العراق من اللحظة الأولى أمام حقيقته المرعبة؛ فهو الظاهر المعلوم الذي لا يخفى على أحد..

بالنظر في بداية الخطبة نجد التالي» يا أهل الكوفة، أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعلِهِ، وأجزِيه بمثلِه، وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورءوسًا قد أينعتوحان قطافُهاوإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى،» مقدمة تمهيدية قصيرة بدأها بنداء فيه تنبيه وتخصيص ثم قسم، والقسم في بدء الكلام علامة على الغضب الذي يشعر به المرسل ويريد ان ينقله إلى المتلقين قرأ الأصمعي قول الله – عز وجل – {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات: ٢٣] . فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟! ألم يصدقوه حتى ألجؤوه إلى اليمين؟![٣٧] فلم يكن أهل الكوفة وحدهم هم الغاضبون الرافضون للأمويين عامة وللحجاج بصفة خاصة وإنما كان هو شديد الغضب منهم، لذلك رغب في إظهار غضبه هذا منذ اللحظة الأولى، فبدأ بذكر الشر والوصف به والتهديد، فبدأ بالمقدمات، وفيها تعريف برد فعله، وليس فعله البادئ به فهو رد فعل قوي، ذلك أنه رأى نشوزا وتطاولا مرتفعة عن مكانها، وفيها تتابع وتوالي في المعاني والألفاظ؛ انتهت ثلاث فقرات (لِه) فالكسر فيه قوة وعزم دون تنوين ثم فقرتين (التاء المربوطة المنصوبة) وفيها قوة بالتنوين دلالة التأكيد

هذه المقدمات لها نتائج واضحة، فنتيجة الشر ستكون الشر بالقدر نفسه، وهذا النشوز والتطاول رأى الحجاج نتيجته وبالا عليهم في قطع رءوس وسيلان الدماء، فقد اعتمد الحجاج على طرائق استدلالية منطقية

في هذا النص مبنية على نتائج مستقرة في أذهان العامة وهو استدلال نوع فيه الحجاج بين طرائق الحجج بالاستدلال المباشر وغير المباشر، فالمباشر نتيجة لازمة عن مقدمة واحدة[٣٨](أما والله إني لأحمل الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعلِهِ، وأجزِيه بمثلِه) أما غير الماشرة فتكون النتيجة لازمة عن مقدمتين أواكثر فقال(وإني لأرى أبصارًا طامحة، وأعناقًا متطاولة، ورءوسًا قد أينعتوحان قطافُها وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق)فقدم السبب ثم النتيجة وهي القتل بصورة واضحة مستخدما أساليب بلاغية تمثيلية تخيلية فبدا الأمر وكأنه واقع وإن بدا غير ذلك إذ لم ير الناس أفعاله وإنما سمعوا بها.

(٣)

بانتهاء المقدمة انتقل الحجاج إلى مرحلة الجد أو الموضوع هدف الخطبة الظاهري فرتل ثمانية أبيات شعرية في غاية القوة تحمل معاني البيت السابق وكأنها تمهيد لما هو قادم صعب ثم انتقل إلى الجزء الثاني من الخطب فقال: «إني والله يا أهل العراق، ومعدن والشقاقوالنفاق ، ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبيّ كتغماز التين، ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء، وفُتِّشْتُ عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه– كب كنانته، بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها عمودًا فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغِيّ).

تراوح الحجاج في هذا القسم في الخطبة بين عدة أمور؛ الهجوم والتفاخر ثم الهجوم والتهديد ، واعاد القسم ثم عمم بعد تخصيص ليعلم أن كلامه عن عامة اهل العراق وليس الكوفة وحدها

عصام محمود أحمد

تكلم عن نفسه مخاطبا أهل العراق عامة بالوصف السيء (معدن الشقاقوالنفاق ، ومساوئ الأخلاق) فهم أصل هذه الصفات ، ومن ثم فقد عادل بين هذه الصفات ولفظ العراق فجعلها معادلا موضوعيا، وبحذف لفظة العراق توضع هذه الصفات بديلا عنها، وفي هذا تأكيد تلك الصورة التي يحملها لهم ، فلا أمل في إصلاحها لأن الصفات تختلف عن الأحوال في ثباتها وديمومتها، فتكون العلاقة هنا مبنية على مبدأ القوة والعنف والحدة، ومن ثم كان الطبيعي في ترتيب المعنى أن ينتقل من السباب إلى تأكيد قوته التي كفلت له أن يتوجه إليهم بهذا الخطاب القاسي .

وقد جاء السجع في الخطبة طبيعيا غير متكلف(العراق- الشقاق- النفاق – الأخلاق) فيه جرس موسيقي واضح ، قيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلّت»[٣٩].فاستخدام الحجاج لهذا السجع في أربع جمل متتالية بدايتها العراق وأهله ثم جعل السجع مقرونا بالسباب ليسهل الحفظ ويقترن الوصف بهم فيصبح ملازما لهما وليكون سهل الحفظ لينتقل إلى عامط الناس من غاب قبل من حضر لإحداث الأثر المطلوب من هذه الخطبة بين عامة أهل العراق.

وترتيب المعاني ودخولها في النفس من الأمور المهمة في تأثير الخطبة في نفس المتلقي ويظهر ذلك في معظم الخطبة، فمثلا لو أعدنا الترتيب وكتبنا (وأجزِيه بمثلِه، وأحذوه بنعلِهِ،) بدلا من «وأحذوه بنعلِهِ، وأجزِيه بمثلِه» فالجملة الثانية تأكيد للأولى ولأن النص شفاهي غير مكتوب قد لا يظهر الفرق الدقيق للوهلة الأولى في سرعة توالي الجمل وتقاربها في المعنى، لكن المدقق يجد تتابع الجمل وترتيبها وهو ما

عصام محمود أحمد

يكون له التأثير في المعنى أو ترتيب المعاني في النفس وهذا مالم يكن في العطف بناء على ما قبله كما في قوله « ورءوسًا قد أينعتوحان قطافُها»فالنضج يتبعه القطف ويستحيل إلا إذا كان القطف قبل تمام النضج وفي هذا ظلم من الْحَجَّاج لمن سيطيح برأسه قبل التأكد من جرمه ، وهو ما أكده الْحَجَّاج في بدء الخطبة وهذا العطف سينقلنا إلى نهاية الخطبة فإنه سيملهم ثلاثة أيام ومن يتأخر يثبت جرمه فيقلته وبنهب ماله ويهدم داره

استخدام المثل في الإقناع

واعتمد الحجاج في هذا الجزء أيضًا على الحجاج بالأساليب النقلية من خلال استخدام أسلوب المثل وتضمينه الخطبة في قوله « لاَ يُقَعْقَعُ لَهُ بِالشِّنَانِ قال الزمخشري» هو جمع شن وهو القربة الخلق إذا قعقع نفرت منه الإبل قال النابغة (الوافر)

(كأنك من جمال بنى أقيش ... يقعقع بين رجليه بشن)

يضرب للرجل الشرس الصعب أي لا يهدد ولا يفزع «[٤٠]، وفيه توظيف للسلطة الثقافية المسيطرة على الذهنية العربية المشكلة عن طريق ضرب المثل للتعبير عن حالة صانعة نوعا من التشظى والتشاكل بفعل الاحتكاك الناتج بين النصين.

وقد كرر الحجاج الاعتماد على المثل بوصفه آلية إقناعية في نهاية الخطبة ، ويجد الناظر المدقق لهذا الجزء تحديدا فيه خلاصة فكر الحجاج السياسي نحو أهل العراق فقد سبقه بالاستعانة بالأسلوب النقلي الإقناعي بوصفه آلية إقناعية ، وقد نوع الحجاج في هذه الأساليب بين شعرية ومثل سائر وقرآني؛س فقد هدد أهل العراق مستعينا بأكثر من

مثل عربي منها « ولأعصبنكم عصب السلمة» وهو مثل يضرب فى التضييق على البخيل حتى يستخرج ما عنده»[٤١] ، وقد استخدمه الحجاج في أكثر من موضع هجومي ؛ فقد هاجم به أنس بن مالك في البصرة بعد ذلك، ثم تبع هذا المثل بقوله» ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل» وفيه استعانة بمثل عربي «يضرب للمظلوم يؤمر بدفع الظلم عنه بأشد ما يقدر علي»[٤٢] وجاءت هذه الآلية النقلية متوالية لتحدث تأثيرًا قويًا في النفس لما في معانيها من حدة وقسوة، وفي الوقت نفسه يعتمد على خلفية ثقافية لدى المتلقين ؛ فجمهور مستمعيه يعرفون هذه الأمثال ، ويدركون مدلولاتها ، وهي في النهاية تؤدي إلى ما يهدف إليه الحجاج من تثبيت مكانته، فالخارج عليه يعرف النتيجة قبل أن يخرج ، ولذلك فلابد أن يتراجع. وفيها دفاع إقناعي يتمثل في بيان الجرم الواقع من أهل العراق وهو عندما يفعل ذلك إنما يعاقبهم بظلمهم وفيه تأكيد على بداية القول بأنه يجازي القول بمثله، ثم أتبعها بتضمين آية من القرآن الكريم تضاف إلي جانب الشعر الذي ضمنه وهي الآية الكريمة {كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} مشبها حال العراق بمن ذكرهم بصورة صريحة بقوله فإنكم لكأهل قرية.

وقد استخدم الحجاج هنا آليتين متداخلتين من آليات الحجاج ؛ الأولى هي أسلوب بلاغي فيه تشبيه حال أهل العراق بأهل القرية وتمثله بهم في الفعل والنتيجة بالشاهد على الغائب، والثانية أسلوب تقلي بالاعتماد على نص موثوق به وهو النص القرآني. وهذا التضمين من القرآن الكريم في النص بوصفه أسلوبا نقليا يتضمن تمثيلا وتشابها متعمدا بين الحالتين، فتشكل الاستعانة بالمورث القديم وسيلة من وائل بناء النص التي تسهم في التعبير عما يجيش في نفس المرسل بوصفه من أهم المعطيات الفعالة التي تفتح الآفاق امام المرسل والمتلقي في آن؛ فهذا

عصام محمود أحمد

النص التراثي يأتي حاملا صورا وأخيلة دلالية ذات معان جمالية وشعورية ونفسية في نفس المتلقي ، وبوصفه معطى من معطيات التراث الفعالة ، ولاشك أن كثيراً من النصوص التراثية تحمل معان كاملة مرتبطة بصور وأخيلة في الضمير الجمعي لارتباطه بالذهنية الموروثة مثل النص الديني أو الشعري.

وقد استخدم الحجاج في خطبته قانون الخفض كآلية إقناعية للتأثير في المتلقي، وفيه يكون النفي اللغوي الوصفي مساويا للعبارة» [٤٣]وفي هذه الحال نحن نستبعد التأويلات المقابلة للنفي المستخدم في النص الحجاجي ، فقد اعتمد الحجاج على المزج بين النفي مع العطف بالواو في جمله القصيرة المتوالية، وقد استخدمه الْحَجَّاج في قوله «ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبيّ كتغماز التين) وفيه وصف ونفي واستبعاد لكل وفهل هناك فارق بين النفي بما والنفي بلا؟ يفرق سيبويه بين النفي بهما بقوله: وأما ما فهي نفيٌ لقوله: هو يفعل إذا كان في حال الفعل، فتقول: ما يفعل. وتكون بمنزلة ليس في المعنى»[٤٤]وليس من الأفعال الجامدة بينما ما من الحروف العاملة عملها، وما أخف في النطق من ليس لقلة حروفها وخفتها ، ما حركة مفتوحة طويلة بألف المد ، بينما ليس فيها الياء الساكنة التي تعطي راحة في النطق، فما هنا تنفي وقوع الفعل المضارع في الحال وتعطي دلالة المستقبل فجمع بينهما ب(ما) وأما لا فقال سيبويه عنها « وتكون لا نفياً لقوله يفعل ولم يقع الفعل، فتقول: لا يفعل»[٤٥]. فتنفي لا المضارع في الاستقبال، فجمع الْحَجَّاج في النفي بين الحال والاستقبال ليشمل في ذلك جميع الأوقات وهي لطيفة تبين قوته اللغوية في تنوعه، وإن قد أراد الْحَجَّاج في النفي، ولذلك تجاوز الْحَجَّاج في تغيير زمن النفي واختلاف المعنى المراد، ولولا ذلك لعد كلامه عيبا فيقول عبد القاهر عن النفي بما «ثم اعلمْ أنك إذا استقريتَ وجدتَها أقوى ما تكونُ وأعلَقَ ما ترى بالقلب إذا كان لا يُرادُ بالكلامِ بعدَها نفسُ معناه [٤٦]

استفاد الْحَجَّاج من التناص في الخطبة وبرز ذلك في تقنية التداخل بين النصوص بالاستعانة بالشعر المنظوم في الخطبة من خلال الاستعانة بأربعة نماج شعرية في خطبته فقد وضع بيتا فيه صرامة وحدة وتهديد واضحلا تخطئه تلك النفوس الكارهة له ، فكان اختياره له موفقا ، ثم إن جزءا من الخطبة يحمل التهديد، ثم ثلاثة نماذج بإجمالي تسعة أبيات شعرية ضمنها خطبته، وجاء التضمين الثاني لبيتين تحريضيين على الحرب، وفيه تخويف رهيب من المتكلم إلى المتلقين ، ولعل المدقق يجد معاني الشعر تماهت مع المعاني النثرية لتحقق معنى التخويف والترهيب، وقد أنتج هذا التكنيك تماهيا قويا في تشكيل البناء النصي للخطبة على الرغم من التباين الواضح في بنية كل نص أدبي منهما؛ فالشعر العربي غنائي يعتمد الخيال في بنائه والخطبة غائية تعتمد الحقيقة والمباشرة ،فجاء هذا الامتزاج الذي صنعه الحجاج بين الخيال والحقيقة نتيجة حسن اختياره للنماذج الشعري ومناسبتها .

وسيحقق الْحَجَّاج من خلالها التخويف من فهم المتلقي للنص أو الخوف من عدم الفهم الناتج الطبيعي عند الإنسان في الخوف من المجهول، وقد برزت من خلال هذه الخطبة البلاغة العالية والفصاحة اللغوية التي يتمتع بها الْحَجَّاج، وهو ما جعل الكلمات تبدو ملغزة وإن كان التهديد فيه جلي . .

(٤)

التحليل الفني للخطبة

يمكننا تقسيم هذه الخطبة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بدأه بالشعر الذي يحمل الفخر بنفسه التهديد القوي الخاص بالقتل المصاحب للهجوم والسباب على أهل العراق الذين ذكرهم صراحة (يا أهل العراق).

القسم الأول: بدأه بالتهديد القوي الخاص بالقتل المصاحب للهجوم والسباب على أهل العراق الذين ذكرهم صراحة (يا أهل العراق).

القسم الثاني: ومدح فيه نفسه بصورة مبالغة قصد من خلاله التهديد والتخويف لهم وبيان قوته، ومكانته عند الخليفة التي جعلته أهلا للتوجه إليهم.

القسم الثالث: انتقل فيه الْحَجَّاج من مدح نفسه إلى التهديد، والتخويف من المصير الذي ينتظرهم لو رفضوا الاستجابة له، وأمرهم بطاعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإذا لم يحدث ذلك فسيكون مصيرهم ذلك المصير الذي رسمه في البداية من قتل ولحو.

اللغة

تغلب اللغة الانفعالية الهجومية على لغة الْحَجَّاج في خطبته هذه، ويظهر هذا جليا منذ اللحظة الأولى للخطبة؛ فهو يستخدم :

ضمير المتكلم .

القسم

وهذا في الخطبة كلها بصورة شاملة، فقد بدأ الكلام بقوله: « إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها» بدأها باستخدام الأسلوب الخبري الاستنكاري من خلال استخدام التأكيد برابطين من أدوات التأكيد(إنَّ+لـ)، وتكرر هذه الأسلوب في النص خمس مرات منها مرة بالقسم في التوكيد الثاني بديلا عن اللام، واستخدم أسلوب القسم الصريح فاستخدام لفظ(الله) صريحا في القسم والتهديد (٦) مرات ، تبدو فيها نبرة الحديث قوية مفعمة بالوعيد ولاشك أن صوته وقتها كان قويا حاسمًا يشبه الرعد لتأكيد

هذه الرؤية في العزم على إنفاذ وعيده، وهي طبيعة الخطاب الشفوي الذي ترتفع فيها نبرة الصوت حال الغضب الذي يتبعه التهديد والوعيد حتى انه ذكر لفظة القسم صريحا (أقسم) في نهاية الخطبة.

تراوح استخدم الفعل للتعبير عن رؤية الْحَجَّاج بين:

الماضي: أينعت، فررت، وفتشت، كب، عجم، وجدني، فوجهني، أوضعتم، واضطجعتم، وسننتم.

المضارع: لأنظرُ، ترقرق، أغمز، يقعقع، لألحونكم، ولأضربنكم، لتستقمن، لأدعن.

استخدم الْحَجَّاج الفعل الماضي مع ضمير المتكلم، مع التأكيد أحيانا بحرف قد؛ مما يعطي الفعل قوة في الدلالة على التحقق والثبوت للفعل، كما أنه قد خاطب أهل العراق مستخدما الفعل نفسه وبالطريقة نفسها، وهو ما يعني التأكد من قيامهم بالأفعال التي نسبها إليهم وليست مجرد تهم .

أما الفعل المضارع فقد استخدمه متلازمًا مع لام القسم ولام التوكيد، وختم كلامه بلام القسم مع النون في الفعل المضارع، فتغير من معرب إلى مبني، وهو في كل الحالات السابقة في صورة أقوي من الأمر. ولذلك كان اختفاء الفعل الأمر طبيعيًا لوجود دلالات أقوى منه.

ثم استخدم الفعل الماضي الذي يعطي دلالة التحقق والثبوت في نهاية خطبته فتعبيرا عن المستقبل الواقع لا محالة في قوله(سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله) نتيجة طبيعية لمن يخالف اوامره.

وقد تنوعت الروابط في الخطبة ومنها (أما – إني– كأني– لقد– إن –واو العاطفة– ولا– إلا)، ويتمثل دور هذه الروابط في إدراج حجة جديدة ، أقوى من الحجة المذكورة قبله ، والحجتان تخدمان نتيجة واحدة، لكن بدرجات متفاوتة بين من حيث القوة الحجاجية»[٤٧]، وكان أقوى هذه الروابط على الإطلاق هو (إني) لارتباطه بالضمير المتكلم (ياء) والقسم دلالة القوة والعزم بينما كان الاعتماد على الرابط العاطفي هو الأكثر ، وبالنظر إلى الرابط العاطفي في الخطبة نجد أنها جاءت على النحو التالي(٣٦) واو العطف (٤) فاء أو جاءت مرة واحدة في الخطبة أي أن حرف (و) العاطفة سيطر على الربط بين الجمل بنسبة تتجاوز ال٩٠ ٪ من الخطبة «في الثقافة الشفاهية الأولية عليك لكي تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبر عنه لفظيا واستعادته على نحو فعال ، أن تقوم بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهي وينبغي أن يأتي تفكيرك إلى الوجود في انماط ثقيلة الإيقاع ، متوازنة؛ او في جمل متكررة أو متعارضة ؛ او في كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة ؛ أو في عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة؛ أو في وحدات موضوعية ثابتة [٤٨] ، لقد بنى الْحَجَّاج خطبته قصيرة نوعًا ما، وسعى إلى اختيار ألفاظها بعناية فائقة، ورغب في تذكرها لذلك استخدم الربط بالواو لسهولة التذكر ، أما الربط بالفاء فقد استخدمه أربع مرات؛ ثلاث منها في معرض الحديث عن نفسه للتفاخر وبيان قدره عند الخليفة وهي رغبة منه في التميز عن أهل العراق الذين خصهم بالواو، ويظهر لنا أن العطف باستخدام حرف واحد (الواو) من العناصر التي تتفرد بها النصوص الشفاهية بينما تعتمد الكتابية على تنوع حروف العطف الأخرى مثل (الفاء، ثم، بل لكن هكذا إذا) ونستطيع القول إن معظم الروابط الأخرى قد توارت في مواجهة طغيان الواو ....ولاشك أن هذا الطغيان قد جاء نتيجة الشفاهية فللنص المكتوب خصوصية وشكل لا يملكها النص الشفاهي ويمتلك صاحبه القدرة على المراجعة والتصويب والتعديل، وإذا

عصام محمود أحمد

نظرنا إلى اختيار الحرف الطاغي لوجدناه حرف «الواو» دونَ غيرِها مِنْ حروفِ العطفِ، وذاك أنه» ليس «للواو» معنى سوى الإشراكِ في الحكمِ الذي يَقْتَضيهِ الإعرابُ الذي أتبعتَ فيه الثانيَ الأولَ. فإذا قلت: «جاءني زيد وعمرو» لم تقد بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبتَّه لزيدٍ، والجمْعِ بينُه وبينَه، ولا يُتَصوَّرُ إشراكٌ بينَ شيئين حتَّى يكونَ هناك معنى يقعُ ذلك الإشراكُ فيه»،[٤٩]

جاء الجزء الأخير من الخطبة مختلفا عن باقي الخطبة فكان نصًا مغلقا لا مجال للتأويل فيه إذا جاءت كلماته واضحة جلية لا لبس فيها فقال:» أما والله لتستقيمُن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلًا في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلًا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله".وفيه مقدمة ونتيجة إقناعية مباشرة باستدلال مباشر في الجزء الأول وهو العقاب جزاء المخالفة ، ثم الاستدلال بأسلوب نقلي هو قول أمير المؤمنين مع الدمج بالاستدلال المباشر عنطريق العقاب الصارم الذي يظهر الهدف الرئيس لهذه الخطبة، لقد قدم الحِجاجُ الذي استخدمه الحّجَّاجُ في الخطبة «الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال ، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية ، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[٥٠] في نهاية الجزء الأخير وهو جزء أوضح فيه الحجاج المطلوب بدقة منهم وهو الخروج للقتال مع المهلب

بدأه بالقسم المؤكد للتهديد والتخويف المنهجي المتبع في هذه الخطبة، وبالرغم من صغر مساحة هذا الجزء إنه مليء بالتهديد والقسم والتأكيد؛

فأقسم مرتين قسما صريحا ومرة بالعطف، ثم أكد بالنون فعلين مع لام القسم المسبوقة بواو القسم بما يمنحنا دلالة واضحة للعزم والقوة التي عليها الحجاج في خطابه الموجه لأهل العراق فطلب منهم الاستقامة على طريق الحق وقصد منها طاعة امير المؤمنين وهذا هو المطلوب الأول منهم ،واتبعه بجزاء المخالفة وهو إحداث أذى في الجسد يشغل صاحبه عن الدنيا

وبعد أن تستقيم على طريق الحق كما يراه هو يأتي الهدف الثاني مسبوقا بعطية؛ فأطمعهم بالعطايا لقاء هذا الفعل، وإن شئنا الدقة فهو الهدف المأمول من كل هذا الجهاد والخروج مع المهلب لقتال (عدوكم) يفيد هذا الضمير الذي استخدمه الحجاج هنا أن الأمر متعلق بأهل العراق لا المهلب والحجاج والخلافة، وعدل بذلك عن استخدام (عدونا –عدوي) وفي هذا خصوصية العداوة، لمن سيقاتلون ، ويلاحظ أن الحجاج استخدم هذا الضمير (المخاطب) (الكاف الصريحة – أنت المخاطب المضمرة) على مدار الخطبة مخاطبا اهل العراق لإحداث الانفصال التام بينهم وبين غيرهم (بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم) ففي هذا الجزء وحده أعطية خاصة بهم ثم توجيهم للحرب بعدها وفيه تهديد خفي بعدم التقاعس عن القتال، وعلامة واضحة على أن الأمر الجاد، وان الحجاج مفصول تماما عن اهل العراق حتى وإن اطاعوه فلم تطاوعه اللغة في اشراك اهل العراق معه في الضمير إذ يراهم أعداء له واقعا فعليا

وهذا النص مع الآية يؤكد أن ما حدث ليس تحفيزا على الجهاد مع المهلب للفتح ونشر الدعوة الاسلامية وإنما هو عقاب لهم على خروجهم على سلطة الخليفة في الشام؛ فهو نتيجة طبيعية لأفعال أهل العراق، وقد جاءت الآية واصفة حال تلك القرية الكافرة بعقاب من الجوع والخوف وهي التي فسرها الحجاج عقابا لأهل العراق في ختام خطبته

(سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله) هذا العقاب يعد استكمالا لسلسة العقاب التي تذخر بها الخطبة وهو عقاب ثلاثي مدمر (دم- ونهب -هدم) فلا يبقى بعدها للرجل شيء حياة أو مال او منزل معتمدا فيه على الفعل الماضي دلالة التحقق والثبوت مسندًا لنفسه الفعل ليظهر كنتيجة لمقولته التي اطلقها في بداية الخطة(والله لا أعدُ إلا وفيتُ، ولا أهم إلا أمضيتُ، ولا أخلَقُ إلا فَرَيْتُ) وقد استخدم الحجاج هنا قانون النفي؛فالنفي هنا حجة لصالح النتيجة المضادة، وفيه تكرار واضح. وقد اعتمده الحجاج ثلاث مرات ، للتأكيد على الوجوب.

(٥)

يندرج الأسلوب البلاغي تحت الاستدلالات القياسية منها التشبيه والاستعارة والكناية وهي من أساليب الحجاج والإقناع المتداولة ، (كب كنانته، بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها عمودًا فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغِيّ) وهنا اعتمد الكناية للاستدلال الإقناعي للاستدلال بالحاضر وهو نفسه وأفعالهم لبيان الغائب وهو قوته والعقاب المنتظر لهم ، وهو قياس طبيعي مضمر. وفيه استدلال غير مباشر ناتج من المعني الخفي/ الجلي من وراء المقدمة الأولى وهي قوته، واعتماد الخليفة عليه بين جملة من القواد، وهي مقدمة قوية فهو نتيجة اختبارات ، واستعارة الرمي من السهم إلى الحجاج لبيان القوة والحدة، تفهم استنباطا من السياق.

وقد اعتمد الحجاج في خطبته على الحجاج التمثيلي في عدة مواضع «فالتمثيل باعتباره تصويرا يجعل الفكرة او المفهوم حاضرا في ذهن المخاطب فيهيئه بذلك لتقل الفكرة ويدعم بذلك القوة التأثيرية للخطاب» [٥١]، وهو هدف رئيس سعى الحجاج إلى تحقيقه في خطبته، وكان التضمين والاقتباس من أهم هذه الآليات الإقناعية وبخاصة استخدامه للآية القرآنية

عصام محمود أحمد

لم تختف الفنون البديعية اللفظية التقليدية من الخطبةمذ بدايتها (والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق) فالسجع الموسيقي الناتج من صوت القاف المسبوقة بالمد الطويل منح الكلمات قوة ودلالة واضحة، بينما تغلب علي معظم الخطبة الصور البيانية وبخاصة فن التشبيه والتمثيل ؛ حاول من خلالها رسم صورة خيالية مرعبة لما يمكن أن يفعله بهم، بالغ في رسم هذه الصورة حدًا تجاوز معه مفهوم المبالغة التقليدي، حتى فن المبالغة الذي استخدمه كان معتمدًا على تلك الصورة الذهنية التي رسمها فن التشبيه فجعل رءوسهم مثل الثمار التي نضجت وتنتظره حتى يقطفها ، وأكد تلك الصورة الخيالية بما يشبه الواقع التفسيري للموقف فكأنه قطف الثمار(الرؤوس) وأصبح يرى الدماء تسيل منها «إن نظرة الشعوب الشفاهية في عمومها، وعلى الأرجح كلها- إلى الكلمات بوصفها ذات قوة تأثير سحرية – هذه النظرة ترتبط على الأقل في لا وعيهم، بإحساسهم بها من حيث هي بالضرورة منطوقة، ذات صوت ومن ثم ناتجة عن قوة»[٥٢].

وهذه الخطبة تمثل اللقاء الأول له مع أهل العراق، أراد من خلاله أن يوضح سياسته، ويث الرعب في نفوس العراقيين ، حتى يكون الرعب الواقع في النفوس منه هو السبيل الأول لتحقيق النصر ، يؤكد ذلك جهل العراقيين بالحجاج وعدم معرفتهم بأسلوبه ولا طريقته في الفعل قبل القول، وقد عبرت الخطبة بصورها وتشبيهاتها القوية عن تلك الصورة التي رغب في إيصالها حتى يحقق جو الفزع ، لاشك أن حفلت الخطبة بالتضمين والاقتباس من الشعر والأمثال والقرآنفي خدمة الفكرة العامة التي سعى الحجاج إلى تحقيقها عبر خطبته وهذا اقتباس متعمد وتضمين يهدف فيه المرسل إشراك غيره في نصه ، ويختلف هنا عن التناص الذي يأتي متضمنا في النص غير متعمد، وهي من الوسائل التي يتسق معها عقل المتلقي ليحقق سرعة الاستجابة والتفاعل مع النص.

Endnotes

١ – انظر ترجمته الصفدي (خليل بن أيبك عبد الله) (ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد بن الأرنأوط، وتزكي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث ٢٠٠٠م.: ١١/ ٢٣٧

٢ – تنكب قوسه: ألقاها على منكبه.

٣ – قال ابن نباتة «فلما سمعوا هذه الخطبة –وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به– تساقط من أيديهم حزنًا ورعبًا".

٤ – البيت لسحيم بن وثيل الرياحي.

٥ – متطلعة ناشزة

٦ – أينعت: نضجت.

٧ – حان قطافها: جاء وقت حصادها.

٨ – ترقرق: تسيل.

٩ – الجماعة من الإبل من اثنين إلى خمسة عشر، ويقال إنها اسم فرس.

١٠ – الشعر لرويشد بن وميض المنبري والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطم: الراعي الظلومُ للماشية يهشمُ بعضها ببعض؛ فلا يبقى من السير شيئًا وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحمق فقيل: «أحمقُ من راعي ضأن ثمانين» قال الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٣٩ «فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابًا؟ وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياءِ عليهم السلام» والوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

١١ – العصلبي: الشديد القوي، والأروع: الذكي، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والداوية ويخفف: الفلاة المتسعة التي تسمع لها دويًّا بالليل؛ «وإنما ذلك الدوي من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلةُ الأعرابِ: إن ذلك عزيفُ الجنِّ» أي: خراج من كل غماء شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابيُّ بطبيعته غِرٌّ ساذج ليس في تجربته كأهل المدن.

١٢ – القعقعة: تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره، والشنان: جمع شَنّ بالفتح، وهو القربة البالية، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع: مثل يضرب لمن لا يُرَوِّعُهُ ما لا حقيقة له، وقد تمثل به معاوية من قبله.

١٣ – يقعقع بالشنان: يحرك والشن هي قربة (كيس من الجلد) الماء القديمة يحركونها لتخاف الإبل فتسرع في المشي وهي تستخدم مثلا لمن يخاف من كل شيء.
١٤ – أغمز تغماز التين: استضعف الرجل وأقلل من شأنه وقيمته.
١٥ – فر الدابة: فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها، وفر عن الأمر: بحث عنه.
١٦ – الكنانة: جعبة السهام. وفي رواية: «كب كنانته» أي قلبها.
١٧ – عجم العود: عضه ليعرف صلابته من خوره.
١٨ – أوضع إيضاعًا: أسرع في سيره كوضع.
١٩ – لحا العصا: قشر،
٢٠ – المرو: حجارة بيض براقة توري النار.
٢١ – السلمة: شجر كثير الشوك. قال الجاحظ في البيان والتبيين «لأن الأشجار تعصب أغصانها، ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان» «٣: ٢١".
٢٢ – قال الجاحظ أيضًا: «٣: ٢٧» «وهي تضرب عند الهرب، وعند الخلاط، وعند الحوض أشد الضرب» وقال الحارث بن صخر:

بضرب يزيل الهام عن سكناته ... كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب

٢٣ – أخلق: أقدر، وفريت: قطعت.
٢٤ – والزرافات جع زرافة بفتح الزاي وضمها: الجماعة من الناس.
٢٥ – القول في الخير، والقال، والقالة في الشر.
٢٦ – من قواد الدولة الأموية.
٢٧ – جعلته نهبًا..
٢٨ – أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،المكتبة العلمية بيروت–لبنان ٢/ ٢٨٨: ٢٩١. ،الخطبة في الكامل للمبرد ١: ١٨١، والبيان والتبيين ٢: ١٦٤، والعقد الفريد ٢: ١٥٣– ٣: ٧، وتاريخ الطبري ٧: ٢١٠، وصبح الأعشى ١: ٢١٨، وعيون الأخبار م٢: ص٢٤٤، ومروج الذهب ٢: ١٣٢، ومعاهد سالتنصيص ١: ١١٥، والكامل لابن الأثير ٤: ١٥٦، وسرح العيون ١١٦، وتاريخ ابن عساكر ٤: ٥٣".
٢٩ – د فتح الله سليمان: الأسلوبية (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) الطبعة الثانية ٢٠١٨م، دار

الآفاق العربية: ص:٤٦

٣٠ – الجاحظ: البيان والتبين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ: ج٢٩/١

٣١ ٠ الأمثال: ابن سلّام أبو عُبيد القاسم بن عبد الله (ت: ٢٢٤هـ): الأمثال، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م، ص: ٤٣.

٣٢ – ابن سلام ص:١١٤

٣٣ – تنكب قوسه: ألقاها على منكبه.

٣٤ – د. محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة لونجمان الطبعة الثانية ٢٠٣م، ص: ٥١.

٣٥ – د. شوقي المصطفى: المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة، المغرب ، دار الثقافة 2005، ص:51

٣٦ – وقد شرح ابن منظور البيت بقوله» وجَلا: اسْمُ رَجُلٍ، سُمِّيَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي. ابْنُ سِيدَهْ: وابنُ جَلا اللَّيْثِيُّ، سُمِّي بِذَلِكَ لِوُضُوحِ أَمره...وطلَّاعُ الثَّنَايَا، بِالرَّفْعِ، عَلَى أَنه مِنْ صِفَتِهِ لَا مِنْ صِفَةِ الأَب كأَنه قَالَ وأَنا طلَّاع الثَّنَايَا، وَكَانَ ابنُ جَلا هَذَا صاحبَ فَتْك يطلعُ فِي الْغَارَاتِ مِنْ ثَنِيَّة الْجَبَلِ عَلَى أَهلها... الْعِمَامَةُ تُلْبَسُ فِي الْحَرْبِ وَتُوضَعُ فِي السَّلْم. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَحْتَمِلُ هَذَا الْبَيْتُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنه لَمْ ينوّنه لأَنه أَراد الْحِكَايَةَ، كأَنه قَالَ: أَنا ابنُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ جَلَا الأُمور وكشَفَها فَلِذَلِكَ لَمْ يَصْرِفْهُ...أَي أَنا الظَّاهِرُ الَّذِي لَا يَخْفَى وَكُلُّ أَحد يَعْرِفُنِي. وَيُقَالُ لِلسَّيِّدِ: ابنُ جَلا».

ابن منظور: لسان العرب: ١٥٢/١٤

٣٧– ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ): كتاب التوابين، الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص:١٦٣.

٣٨– د. شوقي المصطفى: المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة، المغرب ، دار الثقافة ٢٠٠٥، ص:٥١

٣٩الجاحظ: البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ،

ج١/٢٣٩
٤٠–الزمخشري المستقصى في أمثال العرب، دارالكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ ٢/٢٧٤
٤١الزمخشري :المستقصي٢/١٦٢
٤٢– الزمخشري :المستقصي 1/215
٤٣– د أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، المغرب العمدة في الطبع ٢٠٠٦، ص: ٢٤.
٤٤– سيبويه(ت١٨٠هـ): الكتاب، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٨ م، ج٤/٢٢١
٤٥– سيبويه: ج٤/٢٢٢
٤٦– عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص: ٢٦٩.
٤٧– – د أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، المغرب العمدة في الطبع ٢٠٠٦، ص: ٢٧.
٤٨– والترج. وانج: الشفاهية والكتابية: ترجمة د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٢فبراير ١٩٩٤م، ص: ٩٤.
٤٩– عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص: ٢٢٤.
٥٠– د أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، المغرب العمدة في الطبع ٢٠٠٦، ص: ١٦.
٥١– مجموعة مؤلفين الحجاج في درس الفلسفة ، المغرب ، أفريقيا الشرق ٢٠٠٦م، ص: ٢٥.
٥٢– والترج. وانج: الشفاهية والكتابية: ترجمة د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٢فبراير ١٩٩٤م، ص: ٩١.

أهم المصادر والمراجع

١. د. – أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،المكتبة العلمية بيروت–لبنان
٢. ابن سلاّم أبو عُبيد القاسم بن عبد الله (ت: ٢٢٤هـ): الأمثال، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.
٣. شوقي المصطفى: المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة، المغرب ، دار الثقافة ٢٠٠٥.
٤. الصفدي (خليل بن أيبك عبد الله) (ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد بن الأرنأوط، وتزكي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث ٢٠٠٠م..
٥. عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ص: ٢٢٤.
٦. د فتح الله سليمان: الأسلوبية (مدخل نظري ودراسة تطبيقية) الطبعة الثانية ٢٠١٨م، دار الآفاق العربية ٢٠١٩.
٧. ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ): كتاب التوابين، الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.مجموعة مؤلفين الحجاج في درس الفلسفة ، المغرب ، أفريقيا الشرق ٢٠٠٦م، ص: ٢٥.
٨. د. محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة لونجمان الطبعة الثانية ٢٠٣م.
٩. ابن منظور: لسان العرب
١٠. والترج. وانج: الشفاهية والكتابية: ترجمة د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٢فبراير ١٩٩٤م، ص: ٩١.